الفصل الأول
الغزو الثقافى والتواصل المعرفى (*)

● تقوم الحياة فى ربوع كوكبنا الأرضى على التباين بين الشعوب والثقافات واللغات، وليس بالضرورة مع هذا التباين أن تتوحد المصالح والأهداف؛ ولذا غلب التدافع بين الشعوب والأمم فى محاولة التحكم والسيطرة والاستئثار بما فى يد الآخر من خيرات ومزايا، ومن ثم يحاول القوى الذى لا يردعه دين أو شرع أو إنسانية أن يستأثر بكل شئ وقد يضن على الطرف الضعيف بالحياة نفسها، هذا أمر واضح ومعلوم للقاصى والدانى لا ينكره جاهل ولا عالم، ويؤكده السلوك البشرى على مستوى الأفراد والشعوب والأمم فى الحديث والقديم على السواء.

وفي القرآن الكريم تصديق ذلك حيث يقول تعالى: ﴿ **قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا** ﴾ [الكهف: ٩٤ – ٩٧] وقال تعالى: ﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ** ﴾ [البقرة: ٢٥١] وقال سبحانه: ﴿ **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [الحج: ٤٠] ويقول – تعالى – حكاية عن نبى الله سليمان – عليه السلام –: **هل أتاك نبأُ الخصْم إذْ تسوَّروا المحراب * إذ دخلُوا علىٰ داوود ففزع منهُم قالُوا لا تخف خصمان بغىٰ بعْضُنا علىٰ بعْضٍ فاحكُم بيْننا بالْحقِّ ولا تُشْططْ واهدنا إِلىٰ سواء الصِّراط * إِنَّ هذَا أخي لَهُ تسْعٌ وتسْعُون نعْجةً ولي نعْجةٌ واحدةٌ فقال**

(*) جريدة (أخبار الخليج) البحرينية في [٢٩ – ١٠ – ١٩٩٣م].

أكفلنيها وعزني في الخطاب * قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلىٰ نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم علىٰ بعض إلاَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليلٌ مَّا هُمْ ...﴾ [ص: ٢١ - ٢٤].

● وقد أقر القرآن الكريم هذا التباين وبيّن لنا حكمة الله من هذا التنوع وذياك التدافع بين بنى البشر على مستوى الأفراد والشعوب والأمم؛ ولذا أغرى أمة التوحيد وعباده المؤمنين بالأخذ بأسباب القوة ليحموا عقيدتهم وثقافتهم وحضارتهم وليردعوا الطامعين الغزاة وأمرهم بإعداد القوة والبحث عن أسبابها فى كل صوب وحدب لتحقيق الردع ووعدهم بالنصر والتأييد والتمكين فقال سبحانه: ﴿**وأَعِدُّوا لَهُم مَّا استَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ومِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِه عَدُوَّ اللَّه وَعَدُوَّكُمْ وآخَرِينَ من دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ...﴾** [الأنفال: ٦٠].

● وليس يخفى على ذى عينين كيف تسابقت الأمم فى الماضى، وكم تتسابق فى الحاضر فى الأخذ بأسباب القوة على مختلف أنواعها لتحقيق الردع وفرض شروطها وهيمنتها والويل والذل والهوان لمن يتخلف فى سباق القوة ويخلد إلى القعود واليأس والاستسلام والقبول بما يمليه عليه العدو بجبروته وقوته وأوراقه الرابحة والويل للمغلوب !!!.

● ولقد رأينا بعض أهل الفكر ونفراً ممن يتعاطون الأدب ويعالجون فنونه يثيرون فى ناديهم أحيانا مسألة الثقافة والغزو الفكرى ونجد بعض الحالمين من الشعراء والمتسرعين من الكاتبين يبادرون برفض مصطلح الغزو الثقافى ويتهكمون على القائلين به ويرون ذلك وهماً يسكن عقول المفكرين من ذوى التوجه الإسلامىّ فى النهضة والإصلاح ونرى بعضهم ينزعج من كلمة (الغزو) لما يستدعيه ذلك اللفظ من معنى الحرب بأنواعها من طائرات ومدافع وراجمات صواريخ.

● والحقيقة أن المتابع لجملة الآراء التى تطرح فى مناقشة مصطلح (الغزو الثقافى) يرى نفرا من المحاورين والكاتبين ينطلقون من جزر متباينة ويفكرون فى

أبراج منعزلة وينطلقون من خلفيات ثقافية متباينة فضلاً عن تورم الذات لدى البعض منهم والإفراط فى الإعجاب بالرأى الشخصى والغرور فى التناول لدى بعض المتعالين فيهم، ولم يكن ذلك كذلك لولا ضعف الحوار بين أبناء الأمة الواحدة والمجال الواحد والبلد الواحد أحيانا برغم وجود الثوابت والأهداف العليا التى ينبغى أن تُوجد أبوابا مواربة وشعرةً لمعاوية حتى لا نجد فريقا من بنى جلدتنا والناطقين بلغتنا – ودون أن يدروا – فى كتيبة أعداء الأمة ينتصرون لمنطق العدو والطامع بمزاعم التقدم والانفتاح على الآخر، ومن ثَمّ نلاحظ أن مثقفى أمتنا ومفكريها وأدباءها أحوج ما يكونون فى مثل هذه الأيام إلى التواصل والتحاور فى تجرد وموضوعية وتأكيد علَى ثوابت الأمة ورسالتها.

● ونرى من الأهمية بمكان التذكير بمفهوم الثقافة التى تعنى فى العلوم الاجتماعية أسلوب الحياة لدى شعب من الشعوب أو أمة من الأمم فهى كلٌ معقد يشتمل على تراث وتقاليد وعلوم الأمة وطريقتها فى الحياة مع لغتها ومدنيتها وأنماط التفكير فيها، فالثقافة مادية وعقلية أى تشتمل على العمران والتمدن وحضارة الأمة وعلى الجوانب العقلية من فكر وفلسفة ومشاعر ومن ثم فالثقافة ذاتية خلافًا للعلم والمعرفة، العلم لا وطن له أما الثقافة فذاتية، وقد نلتقى مع جوانب من ثقافة أمة أخرى، وقد توجد قيمٌ إنسانية عامة تترسخ فى مختلف الثقافات.

● ولعل الذى حمل بعض دارسينا ومثقفينا والشاعرين فينا على مصطلح الغزو الثقافى المؤكد له رجال مشروع النهضة الإصلاحى الإسلامى خصومة تجاه الإسلام واهتزاز الثقة فى فعالية الدين فى عصر الافتتان بالعلم ومنجزاته فضلا عن سوء توظيف قيم الدين لصالح ذوي المطامع حتى المحتل الغاصب لم يعدم من يبرر سيطرته باسم الدين. وأرى من المهم بهذا الصدد التفريق بين المخلصين فى تبنى مشروع النهضة الإسلامى والمحبين حقًا للإسلام وبين المنتفعين بالتعصب المذهبى والدينى والنافخين فى نار الخرافة والشعوذة باسم الدين، الأمر الذى نفرَّ كثيراً من

أبناء أمتنا المتميزين للانحياز إلى ثقافة الآخر الذى قد يكون عدوا للأمة فى طموحها المشروع وحلمها الأخضر فى حياة العزة وعزة الحياة.

● وقد دأبت الأمم الطامعة فى مقدرات الأمم الأخرى واحتوائها والسيطرة عليها أن تستخدم كل الأسلحة فى حربها ضد الطرف محل أطماعها لإحكام السيطرة عليه واستنزاف خيراته بدون مقاومة، فإن تعذر الوصول إلى الأهداف بالتحايل والخداع كانت القوة العسكرية فإن فشلت القوة العسكرية فبأساليب أخرى للحصول على المطلوب بلا ضرب ولا حرب، والتاريخ خير شاهد على ذلك، هاك على سبيل المثال لويس التاسع بعد الحملات الصليبية المتتابعة على قلب العروبة والإسلام فى مصر والشام يقع أسيراً فى معركة المنصورة وفى سجنه يهتدى إلى استبدال حرب السيف بالكلمة لتحل الكلمة والفكرة فى التمكين لثقافة الغازى حتى تصير هيمنته واحتلاله لبلاد العرب والمسلمين برضا أبنائها ومن ثم أنشئت مدارس الإرساليات ومراكز التبشير، ومع الاحتلال العسكرى فى مصر والشام وغيرهما أُخرج القرآن من مناهج التعليم وتاريخ العرب والمسلمين وتمَّ إحلال تاريخ أوربا وحضارة الغرب وفلاسفة الغرب وعواصمه محل ثقافة العرب المسلمين وفى إيران والشرق الإسلامى إبان الاحتلال تم تفريغ التعليم من مضمونة وتُفرض (رباعيات الخيام) على رواية الشاعر الإنجليزى فيتزجرالد على مناهج التعليم لتدرس للمراهقين بما فيها من إغراء باحتساء الصهباء وصحبة الحسناء وإمرار الوقت فى اللذة والنشوة والسرور بهدف إماتة روح الجهاد وتبتدع المذاهب الدينية مثل القاديانية والبهائية لحرب المفاهيم الإسلامية والتشكيك فى قيم الإسلام وثوابته وتبرير الاحتلال وإقامة دولة بنى صهيون فى فلسطين، ماذا يا أصدقاء الانفتاح الثقافى تقولون فى إحلال ثقافة مكان ثقافة بالقوة كما حدث فى فلسطين المحتلة وعمليات غسيل المخ التى قام بها الشيوعيون لفرض مفاهيمهم وفلسفتهم وما فعله الصهاينة وما فعله الإنجليز فى مناهج التعليم فى مصر والشام والعراق وإيران وما فعله نابليون حين جاء برجال التبشير وحمل معه المطبعة

والمفكرين ولما فشل فى تحويل المصريين عن ثقافتهم وثارت عليه مصر وقاد الأزهر ومجاهدوه الشعب ضده ودخل بخيله الجامع الأزهر الشريف، وماذا نقول فيما فعله الفرنسيون فى الجزائر بخاصة والمغرب العربى بعامة فى فرض الثقافة الفرنسية لولا جهاد العلماء بالقرآن والسيف ويكفى ذكر أسماء: الأمير عبد القادر الجزائرى وابن باديس ومالك بن نبى وغيرهم.

● ولقد دهشت لمن (*) انزعج لكلمة (غزو) وربطها بجحافل القوة العسكرية، ألم يسمع كاتبنا العزيز بأنواع الحروب التى دمرت أممًا دون عسكر ولا طائرات ولا دبابات كحرب الأفيون فى الصين مثلاً للسيطرة على الشعب الصينى وتدميره وحاليًا حروب المخدرات والسموم البيضاء لتدمير الشباب عدة الأمم وسلاحها فى مواجهة الطامعين والمتربصين؟! ألم يسمع عن حرب الإيدز والحرب البيلوجيه؟! ألم يسمع عن الحرب الاقتصادية لإضعاف الخصم وإفقاره وتجويعه وحصاره اقتصاديًا ليخضع للخصم والأمثلة حولنا ماثلة حية لا تحتاج إلى نقاط على الحروف؟!!

● أما العلم والمعرفة فيلزم الأمم الناهضة أن تسعى إليها بكل الوسائل «فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى» كما فى الهدى النبوى الشريف، وفى القرآن الكريم: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٣] والقاعدة التى عول عليها العلماء المسلمون فى النقل عن الآخرين هى: «خذ ما صفا ودع ما كدر».

ولست أرى وقتًا يحتاج فيه المثقفون من أبناء أمتنا أن يتحاوروا فيه ويقتربون من بعضهم لنصرة الأهداف العليا للأمة من هذا الوقت العصيب الذى تتعرض فيه أمتنا للإذابة فى ثقافة الآخر لإضعاف مكامن القوم الذاتية فيها وإخضاعها وإضعافها والإيقاع بين أبنائها وطوائفها ليسود العدو، وحرام علينا أن نرى من بين

(*) هو الأديب والشاعر البحريني علي الشرقاوي في خاطرة لهُ نشرت بجريدة (الأيام) البحرينية في حينها وكانت بعنوان (الثقافة انفتاح علي الآخر).

مثقفينا من يظاهر أعداء الأمة فى حملتهم على الإسلام وتشويههم لرسالته وحربهم لقطاع عريض من أبناء الأمة المخلصين وجنودها المؤملين لعزتها ونهضتها؛ ولذا لزم التحاور والاتفاق على الثوابت والغايات.

ورحم الله شاعر الإسلام الفيلسوف محمد إقبال حين قال فى وصف حال الشباب المفتون بالغرب الجاهل بذاته الحضارية الغافل عن إمكانات أمته وثرائها حين يحسن استثمارها والانتفاع بها وتفجير طاقاتها، يقول إقبال: «إن الشباب المثقف فارغ الأكواب ظمآن الشفتين، مصقول الوجه مظلم الروح، مستنير العقل، كليل البصر، ضعيف اليقين، كثير اليأس لم يشاهد فى هذا العالم شيئًا، هؤلاء الشباب أشباه الرجال ولا رجال، ينكرون أنفسهم ويؤمنون بغيرهم، يبنى الأجانب من ترابهم الإسلامى كنائس وأديارا؛ شباب ناعم رخو رقيق فى الشباب كالحرير، يموت الأمل فى صدورهم ولا يستطيعون أن يفكروا فى الحرية» (مع إقبال) (لكاتب المقالة ص ٣٥ ـ مكتبة النور بالقاهرة).

● وبعدُ: فالحديث عن جوانب الغزو الفكرى فى مجالات التعليم واللغة والأدب والسياسة والاقتصاد والإعلام والإعلان يطول وتضيق به الفصول ولعل كثيرا من الكاتبين تناولوا التركيز على تلك الجوانب فيما أصدرته المطابع العربية بلغة الضاد (*) وما تتفتق عنه أذهان المخلصين من المفكرين والمثقفين والدارسين الذين يعملون في جدٍّ ودأب وإخلاص لرفعه أمتنا وتقدمها وازدهارها.

* * *

(*) انظر الباب السابق من هذا الكتاب حيث تناولنا «أزمة التعليم والتربية والثقافة المعاصرة في العالم الإسلامي».